

تجربتي و رحلتي مع المخطوط

لقاء مع فضيلة الدكتور نظام اليعقوبي

جمع الفوائد و رتبها : هاشم العامري

❁ أول معرفتي بالشيخ حماد الأنصاري أنه دخل مكتبة الجامعة الإسلامية، و رأيت الناس يقبلون عليه للسلام و السؤال ، فسألت من كان بجواري – وكان الشيخ بدر البدر – : من هذا الرجل ؟ فقال : ألست من هذه البلاد ؟ ، هذا الشيخ حماد الأنصاري ، فذهبت للسلام خجِلاً ، فقلت: (كتاب تحفة المجيز و المجيز) هل تعرف له نسخة ؟ فرد الشيخ بعد أن نظر إلي : هل تعرف أنت له نسخة ؟

فقلت : نعم ، في تشستربيتي.

فقال الشيخ : و ما أدراك أنت عن تشستربيتي ؟

فقلت : زرتها ، و بقيت فيها خمسة أيام ، و تصفحت مخطوطاتها.

فنادى الشيخ : يا بدر ، اذهب معه إلى محل إقامته ، ثم الغداء عندي في البيت.

و منذ ذلك و أنا على صلة به.

❁ كان الشيخ حماد الأنصاري يوصي بالمخطوط المسند ، و الذي لا يكون فيه إسناد يقول أنه بلا فائدة.

❁ من المكتبات في ألمانيا : مكتبة تشستربيتي ، و كان اسمها مكتبة بروسيا الملكية ، و الآن يطلقون عليها : المكتبة الملكية ، على اعتبار ما كان. و ليس صحيحاً أن ما فيها من مخطوطات أنه مسروق ؛ لأنه وجد على تلك المخطوطات تملّكات و مكان الشراء ، و كان بين ألمانيا و الدولة العثمانية علاقات ، و كانوا يرسلون سفراء علماء في فنون شتى ، فيقتنون المخطوطات ، و يودعونها في المكتبة الوطنية ، أو الدولة البروسية.

❁ من مكتبات ألمانيا : مكتبة هامبورغ ، و هي مكتبة جامعية ، فيها مخطوطات نادرة ، وجدت فيها مخطوطات الغزالي ترقى إلى عصره.

❁ وفي ألمانيا قريباً من فرانكفورت توجد مكتبة هايدلبرغ. و جدت فيها أكثر الأوراق من نوع البردي الذي ينبت في الماء العذب كالقصب يؤخذ و يفرد فيكون ورقاً ، كان يستخدم قبل الكاغد و القرطاس ، لكن فيه رقّة و يسرع تلفه ، و لذا فهو نادر في الكتب المصنفة ، إنما هو في العقود أكثر.

❁ وجدت أقدم وثيقة حديثية إلى الآن ، ذلك أني وجدت طومار فيه جزء فيه أحاديث عبد الله بن لهيعة على ورق البردي في النمسا.

❁ المكتبة الوطنية في فرنسا فيها من المخطوطات المفهرسة عشرة الاف مخطوط ، هذا ما تم فهرسته ، غير ما لم يفهرس ، و فيها تراث المغرب ، بحكم الاستعمار ، و فيها نسخه من أقدم المصاحف بالخط الحجازي المائل ، كان في جامع الفسطاط ، سرق نصفه الفرنسيون ، و النصف الاخر سرقه البريطانيون ، وهو في المتحف البريطاني. فهذا أقدم مصحف موجود على وجه الأرض ، قبل أن توجد مصاحف صنعاء التي وجدوها في سقف الجامع الكبير.

❁ مكتبة جامعة ليدن في هولندا منذ خمسمائة عام و هي تجمع مخطوطات ، و فيها نفائس التراث الاسلامي ، رئيس هذه المكتبة رغم تقاعده لا يزال يداوم على الحضور فيها.

❁ و في بريطانيا هناك مكتبة المتحف البريطاني ، تسمى اليوم المكتبة البريطانية ، فيها عشرين ألف مخطوط باللغة العربية .

❁ و في بريطانيا مكتبة جامعة مانشستر ، مخطوطاتها على ورق البردي القديمة ، و على رق الغزال.

كذلك جامعة كامبريدج ، و جامعة اكسفورد فيها أحدث مخطوط عندهم عمره على الأقل ثلاثمائة سنة ، ذلك أنهم جمعوا المخطوطات العربية و الإسلامية منذ عام ١٢٠٠ ميلادي.

❁ مكتبة برمنينغهام التي اشتراها تاجر الحلوى (كادبري) هذا اسمه مستر كادبري ، صاحب مصانع الحلويات في ذلك الوقت.

كان عاشقاً للعلم و الكتب ، و كان يشتري الكتب ، و يوقفها في الكنيسة ، و يعمل معه عراقي سرياني عالم بالمخطوطات نصراني اسمه منجانا ، يرسله للمشرق لشراء الكتب العربية و الإسلامية ، تمتاز هذه المكتبة بوجود أقدم نسخة لصحيح البخاري في العالم ، و هي قطعة صغيرة للأسف ، تبلغ جزء حديثي لصحيح البخاري ، و صورتها منذ عشرين سنة ، عمر المخطوطة ألف سنة ، و بينها و بين البخاري مائة و خمسين سنة.

و تسمى هذه المكتبة الآن سيليوغ كوليج ، مكتبة كلية سيليوغ في برمنينغهام.

❁ مكتبة الاسكوريال في مدريد ، على تلة دير الاسكوريال ، و كانت من قبل قصراً. و هذه المكتبة كانت للأمير ابن زيدان المغربي الذي كان يتنقل بين المناطق بالسفن و مكتبته معه ، فهجم القراصنة الاسبان عليه و سرقوا المكتبة ، و أخذوها إلى الاسكوريال. و الاسبان بعد طرد المسلمين منها ، أحرقوا أكثر هذه المكتبة ، فالموجود الآن هو بعض مكتبة الأمير ابن زيدان.

❁ مكتبة الفاتيكان التابعة للكاثوليك ، قريبة من روما. بقيت فيها أياماً . ما هو مفهرس من هذه المكتبة يبلغ ألفي مخطوط ، و الغير مفهرس و لا المعلن عنه يبلغ مائة ألف مخطوط ؛ لأنهم يخفون ذلك لأن النوادر و الكتب لا يريدون اخراجها و فضح أنهم سرقوها ، و البعض يحتاج المال و الوقت و التدقيق.

❁ جامعة برينستون في أمريكا هي أكبر مركز لحفظ المخطوطات العربية ، و قد اشترى صورها كاملة و أوقفها الأمير فيصل بن فهد رحمهم الله على مكتبة الملك فهد الوطنية ، واستفاد منها الباحثون في رسائل علمية. و معظمها حنبلية دمشقية من جمع مستشرق يهودي اسمه يهودا ، كان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر ، و كان عالماً محققاً مجيدا للغات الشرقية ، يأتي إلى دمشق بالمال ، وكان بعض الناس يسرقها ليبيعها ، و إلا فهي أوقاف لآل الشطي ، و آل ضياء الدين ، و المقادسة. فباع هذا اليهودي قسماً منها على تشستربيتي و باع على دفعتين على برينستون ، و هي بخطوط علمائها.

❁ ذهبت إلى تركيا أطلب مخطوط تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني لم يطبع في ذلك الوقت ، و كان عندي نسخة الأزهرية عليها خط قطب الدين الخيضري تلميذ ابن حجر ، فذهبت لأصور نسخ تركيا ، فمكثت شهراً. و كان أمناء المكتبات هم كبار ضباط الجيش ، بعد التقاعد يولونهم المكتبات و لا علم لهم بالمخطوطات. و يرفضون الاستفادة من هذه المخطوطات ، فجلست شهراً بين أنقره و استنبول لأحصل على تصريح تصوير مائة ورقة.

و اليوم تركيا متقدمة على دول العالم في التصوير الرقمي ، و تستطيع الحصول عليه بالتواصل معهم عبر الانترنت.

❁ معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية يُعنى بجمع المخطوطات. الجامعات في الدول الإسلامية اهتمت بالتراث ، كذلك مركز الملك فيصل للبحوث ، لكن تحتاج إلى الدعم المادي ، فبعضها تبدأ بنشاط ، ثم تفتر لهذا السبب. لكن من الملاحظات على الجامعات تقسيم كتاب كفتح الباري على عشرين باحثاً ، تقل الاستفادة بهذا الشكل.

❁ في أمريكا مؤسسة المحافظة على التراث العالمي ، تحفظ كل المخطوطات و الكتب الكترونياً ، و من هذا تراثنا الإسلامي، حبذا لو استفدنا منه. الجهود الفردية قليلة ، لكن نحتاج إلى الجهد الجماعي.